



## نحو التأسيس لفلسفة مصرية

د. حامد طاهر (\*)

ليس الشعب المصرى - بمخزونه الحضارى الكبير، وتاريخه الفكرى والأخلاقى - بأقل من أى شعب آخر له فلسفته الخاصة به ، بنظرياتها وأعلامها ، ومشكلاتها وحلولها ، ومناهجها وتوجهاتها . وقد جرت عادة مؤرخى الفلسفة فى تلمس الفكر الفلسفى عند شعب من الشعوب أو حضارة من الحضارات أن يبحثوا عن الأسئلة الوجودية الثلاثة ، التى يطرحها الإنسان على نفسه بعد أن يستكمل مقومات حياته الضرورية ، وهى :

١- من أين أتيت ؟

٢- لماذا أنا موجود ؟

٣- أين المصير ؟

وهى الأسئلة التى طرحت على العقل الإنسانى ، وما زالت تطرح حتى اليوم، كما أنها الأسئلة التى تعددت وتنوعت الإجابات المقدمة عنها بحسب عقلية كل فيلسوف ، واتجاهه ، والمذهب الذى توصل إليه .

وإذا استعرضنا حضارة الشعب المصرى وجدناها من أقدم الحضارات الإنسانية التى حاولت الإجابة عن هذه الأسئلة الفلسفية . وقد تميزت إجاباتها

\*) أستاذ الفلسفة الإسلامية ومناهج البحث بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

بطابع نظرى وعملى معا ، بمعنى أنها لم تقتصر فقط على جانب التنظير وتقديم الأدلة والاستعانة بالحجج العقلية ، وإنما جعلت منها أسلوب حياة ، ونظاما من الطقوس ، حتى لما بعد الموت .

استطاع الفكر المصرى القديم أن يتوصل إلى جوهر الحقيقى للإنسان ، وأنه ليس الجسد وحده ، وإنما هى النفس أو الروح ، التى لا يفنيها الموت ، وأن أعمال الإنسان فى الدنيا هى التى توفر العذاب أو النعيم لتلك الروح فيما بعد ، وبالتالي فقد نجح المصريون فى تكوين تصور متكامل لفكرة البعث ، وحساب الإنسان بدقة الميزان على كل ما يقوم به من أعمال خيرة أو شريرة ومن المقرر أن فكرة البعث هى الأساس الذى يقوم عليه أى نظام أخلاقى ، وبدونها ينفرط عقد هذا النظام، ويصبح مجرد فكر نظرى ، كما كان عليه الحال عند فلاسفة الإغريق .

ونظراً لما تمتعت به مصر من موقع جغرافى متوسط المكان بين الشرق والغرب، واعتدال فى المناخ طوال شهور العام ، واستقرار نسبى على امتداد نهر النيل من النوبة حتى شواطئ البحر المتوسط ، فإن شعبها قد أتيحت له منذ آلاف السنين فرصة احتراف الزراعة المنتظمة ، فأنشأ القرى والمدن ، وأقام الحكومة ، واخترع الكتابة ، وشيد الأهرامات والمسلات والمعابد ، وبالجملـة تمكن من إقامة حضارة مزدهرة ومتواصلة على مدى عدة قرون .

وفى مثل هذه الحضارة التى بدأ الكشف عما كانت تفكر فيه ابتداءً من سنة ١٨٢٢ ، حين تم حل رموز حجر رشيد ، وعرف العالم كله ماذا كتبه المصريون على آثارها الباقية - كانت هناك فلسفة مصرية ، ارتبطت بواقع المجتمع ، ومتطلبات الحياة فيه .

وبإمكاننا أن نتصور أن المعتقدات الدينية كان لها فى نفوس المصريين أثر كبير ، وأنهم من خلال تأمل وتطوير تلك المعتقدات توصلوا إلى عدة أفكار

رئيسية منها : فكرة الإله الواحد ، الذى يعلو فوق كل الآلهة - الرموز الأخرى ، وقدرة هذا الإله على خلق الكون ، والحفاظ على نظامه المستمر ، كما توصلوا إلى خلود النفس ، وأن الموت ليس سوى رحلة تغادر فيها الروح البدن لكي تعود إليه مرة أخرى ، ومن هنا جاء اهتمامهم بالمقابر ، وتحنيط الجثث ، ووضع متعلقات المتوفى بجانبه لكي يستخدمها عندما تعود إليه الروح بعد مساومتها في محكمة دقيقة الموازين ، يحاسب فيها الإنسان على كل قام به فى حياته من خير أو شر . وهنا يمكن الرجوع إلى (كتاب الموتى) لنستخلص منه عناصر فلسفة متكاملة ، ليس فقط عن الحياة الآخرة التى تصورها المصريون ، وسبقوا بها شعوب العالم القديم كله ، بل عما يجب أن يتزود به الإنسان فى حياته الدنيا كذلك .

أما الأدب المصرى القديم فهو ملئ بالحكم والمواعظ والنصائح التى تتكون منها فلسفة أخلاقية من الطراز الأول . وقد اكتشف ذلك وأثبتته (جيمس هنرى بيرستيد) أحد كبار علماء المصريات فى الغرب ، فى كتابه (فجر الضمير) الذى ألفه سنة ١٩٣٣ ، وترجمه إلى العربية الأستاذ سليم حسين سنة ١٩٥٦ ، حيث حاول أن ينبه العالم الغربى إلى حقيقة كانت غائبة عنه ، وهى ان المصريين القدماء هم المؤسسون الأوائل للفكر الدينى والأخلاقى والاجتماعى ، الذى استفاد منه العبرانيون ، الذين يعدون أحد أهم الدعائم التى قامت عليها الحضارة الأوروبية فيما بعد .

قد يلاحظ أننا لا نجد فى الحضارة المصرية القديمة أسماء لشخصيات فلسفية بارزة ، وكل ما لدينا - حتى اليوم - أسماء بعض الملوك أو الفراعنة الذين تفلسفوا كإخناثون مثلاً ، لكن الفلسفة كانت تنحصر فيما يبدو لدى طبقة الكهنة ، التى كانت تستأثر بالمعرفة الأسمى والحكمة ، ثم تقدمها من ناحية للملوك ، الذى جعلتهم فى بعض الأحيان رمزاً للآلهة ، كما تبثها من ناحية أخرى بين عامة لشعب ، لكي تتحول لديه إلى ثقافة عامة ومعتقدات دينية .

ومع ذلك فإننا لا نفتقد لدى الشعب بعض الحكماء الذين كانت لديهم نظرة عامة لشئون الحياة ، تمثلت فى نصائح وتوجيهات كانوا يقدمونها لأبنائهم أو تلاميذهم فى عبارات مختصرة لكى يستعينوا بها على اتباع السلوك الفاضل فى مختلف المواقف .

إن الفلسفة المصرية القديمة لم يتم درسها بعناية حتى الآن . وهناك أسباب عديدة لذلك ، أهمها أن علماء الآثار ما زالوا يوجهون اهتمامهم نحو اكتشاف الآثار المادية للحضارة المصرية القديمة ، المطمورة فى باطن الصحراء ، أو تحت القرى والنجوع ، والتي ما زالت تختزن الكثير من المفاجآت ، ولذلك فإن كل ما تم التركيز عليه من الفكر المصرى القديم إنما يعتمد على نصوص جزئية ، أو كتابات غير مكتملة ، وباستثناء (كتاب الموتى) وبعض الألب القصصى الذى وصلنا كاملاً، فإن الأحكام العامة والدقيقة على مجمل الفكر المصرى القديم تظل رهنا بالمستقبل ، وبتناجى العمل الحفارى الجاد الذى يجرى فى الوقت الحاضر .

عرفت مصر الأديان السماوية الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام . وهى الأديان التى تقدم كل منها (تصوراً) لله والكون والإنسان . وهذا التصور هو الذى يعطى للحياة معنى ، ويحدد لمن يعيشها هدفاً ومسئولية . وقد تنوعت مظاهر الالتقاء بين هذه الأديان الثلاث وبين الشعب المصرى . فاليهودية حملها موسى عليه السلام إلى فرعون مباشرة، وجرى بينهما حوار اتسم بالتحدى : موسى يخبر فرعون بضرورة إيمانه بالله ، وما يترتب على هذا الإيمان من طاعة وعبادة ، وفرعون يدعى أنه إله المصريين ، ولا يمكن أن يوجد إله غيره ، وإذا كان . . فسوف يأمر وزيره هامان ببناء برج عال لكى يصعد إلى أعلاه ، ويطلع على إله موسى (المزعوم) ! وعندما يفاجأ فرعون ببعض المعجزات المؤيدة لموسى ، كإخراج يده من جيبيه بيضاء ، وهو أسمر اللون ، وإلقاء عصاه فإذا هى حية تسعى ، يستعين بسحرة مصر كلهم ، الذين عندما

يواجهون المعجزة الإلهية يدركون على الفور أنهم أعجز من أن يتحدوها ، فضلاً عن أن يتغلبوا عليها ، بل يعلنون إيمانهم برب موسى • وعلى إثر ذلك ، قام فرعون وجنوده بطرد جميع المؤمنين بموسى من مصر ، ومطاردتهم فى سيناء ، حتى ابتلعهم البحر – المعجزة ، الذى انشق وسط الصحراء ، وأغرق فرعون وجيشه !

والأسئلة هنا متعددة : كيف كان تأثير هذه الأحداث الكبرى على الشعب المصرى ؟ وما هو التأثير الحقيقى للديانة اليهودية فى مصر ؟ وما هى البقايا التى ظلت فى الذاكرة المصرية من تعاليم اليهودية ووصاياها العشر ؟ وهل قام المصريون بمحوها محوا كاملاً من حياتهم ، وتاريخهم الذى يقال إنهم سجلوا أدق تفصيلاته ؟ ثم لماذا لم يرق أى داعية يهودى للتبشير باليهودية داخل مصر بعد ذلك ، كما فعل المسيحيون فيما بعد ، تحت حكم الرومان الذى كان أكثر عسفاً وطغياناً ؟ إن هذه الأسئلة وأمثالها لم يدرسها أحد من قبل ، وربما أيضاً لم يطرحها أحد من قبل ! وتم الاكتفاء بالتساؤل حول : من هو فرعون موسى ؟ الذى لا توجد إجابة حاسمة حوله حتى الآن !

أما المسيحية ، فقد دخلت مصر سرّاً سنة ٦٥ ميلادية ، على يد القديس مرقس ، تلميذ بطرس أحد حوارى المسيح الإثنى عشر ، والذى قتله الرومان شر قتلة سنة ٦٨ ميلادية • ومرقس هو كاتب أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى المسيحيين • وفى الإسكندرية ، عاصمة مصر آنذاك ، والتى كانت تموج بأفكار الفلسفة الإغريقية ، وما تفرع عنها من فلسفة الأفلاطونية المحدثة ، وأفكار علمية أخرى : رياضيه وفلكية وطبية – استطاع القديس بطرس أن يضع بذرة المسيحية التى سوف تنمو ، وتنتشر بعد ذلك فى أرجاء مصر كلها ، بل إنها تجاوزتها حتى وصلت إلى الحبشة • وعلى مدى خمسة قرون ، اعتنقت أعداد غفيرة من الشعب المصرى المسيحية ، ووجدت فيها إجابات أفضل مما كان لديها من المعتقدات المصرية القديمة • فالحاكم لم يعد هو

الإله، أو حتى رمز الإله (كما كان الكهنة يكرسونه بين المصريين لكي يسهل حكمهم من ناحية ، ويستمر نفوذهم ومكاسبهم من ناحية أخرى) والخوف من الإله المصرى حل محله حب الله فى المسيحية ، ثم يجئ التضامن فى أعلى مستوياته لدى المسيحيين الأوائل ، الذى يشير إليه سفر أعمال الرسل بأن "جماعة المؤمنين كانوا قلبا واحدا ، وروحا واحدة ، ليس بينهم من يدعى ملكية ما يخصه ، بل كانوا يتشاركون فى كل شئ ، فما كان أحد منهم فى حاجة ، لأن الذين يملكون الحقول أو البيوت كانوا يبيعونها ، ويجيئون بثمن المبيع ، فيلقونه عند أقدام الرسل ليوزعوه على قدر احتياج كل واحد من الجماعة" (٤ : ٣٢-٣٥) .

لا شك فى أن المصريين قد وجدوا فى المسيحية التعبير الأفضل عن المعتقدات الدينية التى ظلوا يطورونها بأنفسهم على مدى أربعة آلاف سنة ، ولذلك أقبلوا عليها بسماحة نفس ، وتحملوا من أجل التمسك بها ، وعدم التنازل عنها كل صنوف العنف والطغيان من جانب المحتلين الرومان ، الذين كانوا يسعون إلى محو المسيحية تماما من مصر ، ومن نفوس المصريين الذين آمنوا بها ، لأن هؤلاء لم يعودوا يعترفون بالوهية الأمبراطور الرومانى ، وبالتالي امتنعوا عن تقديم القرابين وأحراق البخور من أجله . وهناك حادثة مأساوية وقعت خارج مصر تدل على ذلك : حين رفضت كتيبة مصرية من طيبة ، وكانت ضمن الجيش الرومانى الذى يحارب فى سويسرا ، أن تشعل البخور للإمبراطور ، تمسكا بعقيدها المسيحية، صدر أمر قائد الجيش بإبادة جميع جنودها . وبعد فترة من الزمن ، أقيمت فى مكان استشهادهم كنيسة ، وسميت المدينة باسم قائدهم (القديس موريس المصرى) . وتمثاله قائم حتى الآن . وقد تمكنت إحدى الممرضات المصريات التى كانت بصحبة هؤلاء الجنود من الهرب ، واسمها (فرينا) من محافظة قنا ، واستطاعت بعد ذلك أن تنتشر المسيحية بين أهالى المنطقة وأطفالها ، ولذلك تعرض صورتها فى المعاجم

السويسرية ، وهى تمسك بإحدى يديها مشطا ، وفى الأخرى إبريقا : رمزاً لدورها التبشيري هناك<sup>(١)</sup> .

وبالنسبة إلى اليهود ، سوف يبرز منهم فيلسوف مصرى المولد ، كبير الشأن، هو (فيلون السكندرى) المتوفى سنة ٥٠ ميلادية . وقد حاول فيلون إحياء الديانة اليهودية من خلال تفسيرها تفسيراً فلسفياً ، استعان فيه بمجموع الفلسفات الإغريقية التى كانت تموج بها مدينة الاسكندرية آنذاك . وقد توصل إلى منهج التأويل المجازى للتوراة ، وهو المنهج الذى سوف يكون له أثر ممتد فى الكنيسة المسيحية فيما بعد ، كما سوف يتأثر به بعض فلاسفة المسلمين ، وخاصة من الشيعة والصوفية .

أما الفيلسوف المصرى الثانى ، والذى يبرز اسمه فى عهد انتشار المسيحية بمصر ، فهو أفلوطين (توفى ٢٧٠ ميلادية) الذى أنشأ مذهباً فلسفياً تجاوز به الفلسفة الإغريقية العقلية ، إلى فلسفة عقلية - روحية أطلق عليها اسم (الأفلاطونية المحدثة) وهى التى تعترف بوجود إله خالق للعالم ، لكنه منزه عن أن يتصل به اتصالاً مباشراً ، ولذلك لجأ أفلوطين إلى القول بوجود عشرة عقول ، انبثق أولها من الله ، وراح كل منها يخلق العقل التالى ، حتى وصل إلى العقل العاشر الذى يشرف على ما تحت فلك القمر .

وقد استطاع هذا المذهب أن يستمر تأثيره طويلاً فى الكنائس المسيحية ، وأن ينتقل منها إلى الفلسفة الإسلامية . ومن الجدير بالذكر أن خطأ وقع فى ترجمة عنوان كتاب أفلوطين (التاسوعات) عند نقله إلى العربية ، فظهر فيها بعنوان (اثولوجيا أرسطاطاليس) فظنه المسلمون من إنشاء أرسطو ! وعندما وجدوا صاحبه يتحدث عن الله ، وكيفية الاتصال به ، أطلقوا عليه لقب

(١) نقلا عن د . وليم سليمان قلاذه فى كتابه (المسيحية والإسلام على أرض مصر)

(أفلاطون الإلهي) ! لكن المهم أن نظرية أفلوطين عن العقول العشرة ، والتي تسمى أيضا بنظرية الصدور ، أو الفيض ، كان لها تأثير كبير لدى فلاسفة المسلمين ، وخاصة الصوفية .

وفي عام ٦٤٠ ميلادية ، وقع الفتح الإسلامى لمصر ، وبدأت به مرحلة جديدة تخلص فيها المصريون من الاحتلال الرومانى الذى استمر (٦٧٠) عامًا متواصلة (ولعلها أطول فترة احتلال فى التاريخ !) كما توالى اعتناقهم للإسلام، حتى أصبحوا هم الأغلبية، وصارت مصر إحدى أهم الولايات الإسلامية ، بل إنها كانت تنصدر أحيانا لتصبح مركزًا للخلافة الإسلامية نفسها (الفاطمية لمدة ٢٠٩ سنوات ، والعباسية لمدة ٢٦٤ عامًا) . ومن الثابت أن مصر قد شهدت فترات ازدهار علمى وثقافى فى مختلف المجالات ، وظلت مكانًا يؤمه العلماء والأدباء والصوفية والمؤرخون من شرق العالم الإسلامى ومغربه على السواء . وقد ظهر فيها أعلام فى مجالات اللغة والأدب والفقه والتاريخ ، وكذلك أعلام فى الطب والفلك والرياضيات ، لكنها ظلت فقيرة نسبيًا فى مجال الفلسفة ، ولم يشتهر منها فى هذا المجال سوى بعض الأسماء ، نذكر من بينهم : الصوفى الكبير (نو النون المصرى) والشاعر الكبير (ابن الفارض) والطبيب المتفلسف (ابن النفيس) .

ويعد نو النون المصرى (ت ٢٤٥هـ) من رواد التصوف الإسلامى ، وهو الذى أدخل فكرة المعرفة كهدف نهائى للصوفى ، وبذلك انتقل به من مرحلة السلوك إلى آفاق التأمل والتفكير ممهّدًا الطريق بذلك لظهور أمثال السهروردي ، وابن عربى . أما ابن الفارض (ت ٦٣٢هـ) فهو شاعر الحب الإلهى دون منازع ، لأن ديوانه الشعري كله يدور حول هذا الموضوع الذى أصبح جزءًا لا يتجزأ من التصوف الإسلامى . وأما بالنسبة إلى ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ) الطبيب الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، فقد ترك لنا فى



(رسائله الكاملية) تصورا فلسفيا يضارع تصور الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل  
فى رسالته (حى بن يقظان) .

وطوال عهدى المماليك والعثمانيين (٦٥٨-١٢١٣) ، عادت مصر من جديد لتدخل فى عصور المعاناة والانحسار الثقافى ، حتى دقت أبوابها بعنف حملة بونابرت سنة (١٧٩٨م) فجعلتها تستيقظ من سباتها الطويل ، وتحاول أن تمسك مصيرها بنفسها ، لكنها لم تتقدم سوى نصف خطوة حين قام علماء الأزهر بمساندة محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨) فى الصعود إلى حكم مصر ضد رغبة السلطة العثمانية فى تركيا . ومن العجيب أن هذا الرجل الغريب عن مصر ، قد استجاب لطموحها ، فأحدث فيها نهضة شملت معظم المجالات ، ثم خلفه أبناء وأحفاد لم يكونوا على نفس المستوى ، فوقع فى عهدهم الاحتلال البريطانى (سنة ١٨٨٢م) والذى استمر سبعين سنة ، كان على المصريين أن ينهضوا لمقاومته من ناحية ، وللأخذ بوسائل التقدم الحديثة من ناحية أخرى وكان الجمع بين المهمتين من أصعب الأمور . وفى المصاعب تمتحن معادن الشعوب ، ويظهر فيها من يكون على مستوى الأحداث .

وخلال القرن التاسع عشر ، سوف نلتقى باثنين من كبار المصلحين المصريين . وكلمة مصلح هنا تحمل فى طياتها معنى المفكر وأكاد أقول الفيلسوف الذى له رؤية ومنهج وأسلوب ، وهما : على مبارك ، ورفاعة الطهطاوى .

أما على مبارك (ت ١٨٩٣) فهو الذى أنشأ التعليم المدنى فى مصر ، بعد أن كانت مقتصرة فقط على التعليم اللغوى والدينى المتوارث فى الأزهر . ومن المعروف أن هذه المدارس هى التى تخرج فيها مئات الآلاف من الكوادر البشرية التى عملت فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة ، فأحدثت بها نهضة لا يستهان بها .

وأما رفاعة الطهطاوى (ت ١٨٧٣) فقد عكف بعد عودته من البعثة بفرنسا على تكوين وتدريب جيل من المترجمين ، الذين نقلوا إلى اللغة العربية ما كان ينقصها من العلوم والمعارف الحديثة ، وكذلك من عناصر الثقافة العالمية ، حتى يقال إن تلاميذ الطهطاوى قد استطاعوا أن يترجموا حوالى ألفى كتاب ، بدءاً من الرياضة البدنية التى يمارسها الإنسان فى الصباح حتى علم التشريح فى الطب ، وذلك إلى جانب ترجمة القوانين الفرنسية وأساليب العمل السياسى فى أوزبا . وقد فتحت هذه الكتب المترجمة عين مصر على ما يجرى فى العالم الحديث ، وجعلتها تنهض لمحاكاته ، بل ومنافسته .

لكننا لا ينبغي أن نغادر القرن التاسع عشر ، قبل أن نذكر عالماً أزهرياً ، كان كفيف البصر لكنه نافذ البصيرة ، هو الشيخ حسين المرصى (ت ١٨٩٠) الذى راح يدرس الأدب العربى بمنهج جديد فى الأزهر ودار العلوم ، ثم استطاع أن يخلق فوق مستوى عصره عندما أملى رسالته الهامة حول (الكلمات الثمان) ويقصد بها مجموعة من المفاهيم الحديثة تماماً على الفكر المصرى وهى (الأمة ، والوطن ، والحكومة ، والعدل ، والظلم ، والسياسة ، والحرية ، والتربية) . وميزة هذه الرسالة أنها تؤسس لقيام المجتمع المدنى فى صورته الحديثة ، وليس كما عرفت مصر خلال القرن التاسع عشر ، والقرون التى سبقتة !

وهكذا يمكن القول بأن التعليم الحديث والثقافة المعاصرة قد سارا جنباً إلى جنب فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من وجود الاحتلال البريطانى المسيطر على مقدرات مصر ، فقد استطاعت أن تتحرك فى الاتجاه الصحيح . فمثلاً تأكدت دعوة محمد عبده (ت ١٩٠٥) إلى أهمية التربية ، ومزجها بالتعليم . ولا شك أن الفائدة فى هذه الفكرة ترجع إلى فائدة كل من المعلم لكى يجيد القيام بالعملية التعليمية حسب الأسس الحديثة ، وإلى

التلميذ الذى ينبغى أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة إلى جانب تزوده بالمعلومات من المدرسة .

ومن تلاميذ محمد عبده قاسم أمين ، صاحب كتابى (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) وقد أحدثت هذه العناوين صدمة فى المجتمع المصرى حينئذ ، لكن المهم أنه دعا إلى أن تأخذ المرأة المصرية مكانها بجوار الرجل ، وليس خلفه ، وبالتالي فإن من حقها أن تتعلم مثله وأن تعمل . وبذلك خرج نصف المجتمع من مكمته ، وانفتح أمام المرأة المصرية طريق طويل من العمل والإنتاج .

أما أحمد لطفى السيد ، الذى راح يعمل فى دأب لنقل مؤلفات أرسطو إلى اللغة العربية ، وخاصة كتابيه (السياسة) و(الأخلاق) فماذا كان يريد أن يقول للمجتمع المصرى؟ لقد كان يسعى إلى بيان أسس الحكم ، وفلسفة السياسة ، ومبادئ الأخلاق ، مؤكدا على مبدأ الحرية بالذات فى مجال الاقتصاد . ويكفى أن نستمع إليه فى افتتاحية إحدى مقالاته التى نشرها سنة (١٩١٣) : "إن السياسة ينبغى أن تكون فى خدمة الاقتصاد" وهو المبدأ الذى لم تحاول به مصر - ربما حتى الآن - أن تأخذ به ، مع أنه السر وراء نهضة كل البلاد المتقدمة فى العالم !

وإلى جانب أعماله الفكرية العديدة ، تولى أحمد لطفى السيد رئاسة الجامعة المصرية التى انشئت عام ١٩٠٨ ، ضد رغبة المحتلين الأنجليز ، وفيها تكون جيل كامل من أفضل الكوادر التى قادت حركة التحديث والنهضة العلمية والفكرية والثقافية فى النصف الأول من القرن العشرين .

وفى الجامعة المصرية ، تألق طه حسين : طالبا ، ومدرسا ، وعميدا لكلية الآداب . وقد كانت له رؤية خاصة لنهضة مصر ، من خلال انفتاحها على ثقافة حوض البحر المتوسط ، وتوثيق علاقاتها العلمية والثقافية مع أوروبا .

وكانت لأرائه الجريئة ردود فعل صاخبة ، أثارت حركة ثقافية وفكرية فى المجتمع المصرى كله .

وخارج الجامعة ، راح عباس محمود العقاد ، الكاتب الغزير الانتاج ، ينشر مؤلفاته ومقالاته التى تنقل عناصر هامة من الثقافة العالمية الحديثة والمعاصرة إلى الثقافة المصرية ، محاولاً فى نفس الوقت التمسك بالجنور الدينية الضاربة فى أعماق المجتمع المصرى .

وبجانب العقاد ، نجد كلا من د . محمد حسين هيكل ، وأحمد حسن الزيات ، له رؤية مصرية وإسلامية متكاملة . فى حين عكف أحمد أمين على تطبيق المنهج الحديث فى الدرس الأدبى والتاريخى على النصوص العربية التى كانت مطمورة فى كتب التراث العربى ، واستطاع أن يستخرجها ويصنفها ويضعها فى دراسات منهجية مترابطة . ومن أبرز أعماله (زعماء الإصلاح) الذى يدعو فيه إلى منهج للنهضة ، ويدفع المصريين إلى مواصلة الإصلاح .

وفى مجال الأدب ، تألق أحمد شوقي ، وبجواره حافظ إبراهيم . وقصائدهما مليئة بحب مصر ، والتغنى بأمجادها ، من أجل دفع أبنائها إلى الأخذ بوسائل التقدم . وكما كان يحيى حقى أجمل تعبير فى القصة والرواية عن الروح المصرية الأصيلة ، فإن نجيب محفوظ هو الذى استطاع فى أعماله الكثيرة والمتنوعة أن يصور أنق تفاصيل الحياة المصرية ، وهى تخرج من صدقتها التقليدية إلى إيقاع العصر الحديث . ومن الجدير بالذكر أن أدب هؤلاء الرواد لم يحظ حتى الآن بدراسة تستخلص الرؤية الفلسفية لكل منهم على حدة ، ثم لهم مجتمعين .

أما سلامة موسى فقد راح يسعى بحماسة المعهودة لإحلال الثقافة الغربية الحديثة محل الثقافة العربية والدينية التى بدت له هامة مستكينة فى المجتمع

المصرى . وقد أخذ على عاتقه التعريف بالشخصيات والمذاهب والأفكار التي كان لها أثر بارز في أوربا لكي تهز عقلية الشعب المصرى . وكان ملخص مذهبه الفكرى أن مصر إذا أرادت أن تتقدم وتنهض فليس أمامها سوى أن تأخذ بأسباب التقدم والنهضة التي أخذت بها أوربا من قبل، مؤكداً في ذلك على فتح جميع الأبواب والنوافذ أمام حرية الفكر والتعبير بدون أية قيود .

أما في مجال الدراسات الفلسفية والمنطقية ، فقد راح كل من زكى نجيب محمود ، وعبد الرحمن بدوى ينقل إلى العربية ما استطاع من المذاهب والأفكار الفلسفية في الغرب على مدى تاريخه الطويل . وقد ركز أولهما على المنطق الوضعى ، بينما أعجب الثانى بالفلسفة الوجودية ، وإن كان كل منهما قد عاد في آخر حياته إلى الغوص في التراث العربى والإسلامى لاستخراج ما فيه من أصالة وتميز .

كذلك يهمننا الإشارة هنا إلى شخصيتين مصريتين ، هما توفيق الحكيم وكان روائياً ومفكراً مستقل الرأى والاتجاه ، وعثمان أمين ، وكان أستاذاً للفلسفة بجامعة القاهرة . وخصوصية هاتين الشخصيتين تتمثل في اصدار الأول لنظرية فلسفية خاصة به سماها (التعادلية) والثاني لنظريته التي سماها (الجوانية) وهى نظريتان مصريتان ما زالتا تستحقان مزيداً من الدرس ، ومحاولة المقارنة بينهما .

وفى مجال الرصد والتحليل الاجتماعى ، الذى يتميز بروح مصرية أصيلة، تبرز شخصية سيد عويس ، الذى استطاع من خلال مؤلفاته ، والمدرسة التى تكونت حوله من التلاميذ ، أن يتغلغل فى أعماق المجتمع المصرى بكل طبقاته وطوائفه ، وأن يحلل الكثير من عاداته .

وفى مجال الجغرافيا الحديثة ، يلمع اسم جمال حمدان ، الذى ظلم حياً وتم تقديره بعد وفاته - كما هى العادة فى الشرق ! وكتاباتهِ عن عبقرية مكان

مصر ومكانتها تتضمن العديد من الرؤى الفلسفية التى تحتاج إلى إعادة القاء الضوء عليها.

أما أستاذ الهندسة المعمارية الفذ ، حسن فتحى ، فهو الذى قدم النموذج العملى على كيفية بناء البيت الريفى فى مصر الحديثة ، مستوحيا هندسته ومعماراه من بيت الفلاح المصرى القديم ، مستفيدا من مواد البيئة المحيطة به، وطريقة عمل منافذ الإضاءة والتهوية على النحو الذى توصلت إليه الحضارة المصرية القديمة . وقد استحق بفكرته العبقريّة تلك أن يحظى باحترام العالم كله ، دون أن يجد له نصيبا مماثلا من الشهرة فى مصر ذاتها !!

والى هنا يمكن التوقف . وقد يلاحظ القارئ أننى ذكرت اثنتين وعشرين شخصية فقط . والواقع أننى قصدت إلى ذلك قصدا ، لأنها تمثل - فى رأى - جنور الفكر المصرى الذى يمكن التأسيس عليه لإقامة فلسفة مصرية معاصرة . وقد يسأل معترض : ولماذا أغفلت أمثالهم ؟ وهنا أجيب بأننى كنت أتلمس عند كل واحد من هؤلاء : اهتمامه بالشأن المصرى ، أى بواقع مصر ومستقبلها ، بهذا البلد الذى يقيم فيه شعب متصل الحلقات منذ أكثر من أكثر من خمسة آلاف عام ، استطاع فى الماضى أن يقيم حضارة ما زالت آثارها الباقية موضع احترام وإعجاب العالم كله . لكن هذا الشعب الصبور مرت به فترات احتلال ومحن ، كانت تطول أحيانا إلى عدة مئات من السنين ، ومع ذلك كان يخرج منها ، ثم يواصل مسيرته الهادئة على شواطئ النيل ، غاسلا فيه همومه وأحزانه ، ومستمداً منه قدرته على البقاء والاستمرار .

أما الأسماء الأخرى التى قد تكون ألمع من بعض الأسماء التى ذكرتها ، من أمثال الأفغانى والكواكبي ورشيد رضا والرافعى وأمثالهم .. فقد كانت دائرة اهتمامهم أوسع من الاهتمام بمصر وحدها ، فقد شملت الأمة الإسلامية فى عمومها واتساعها ، وبالتالي فإن أعمالهم وجهودهم الفكرية تدخل فى إطار

الفلسفة الإسلامية التى تناولتها فى موضع آخر ، أما الآن فتركيزنا منصب على الفلسفة المصرية بمعناها المحدد ، وإطارها المحدود .

والواقع أننى أصدر هنا من فكرة رئيسية ، وهى أن المشكلات بكثرتها وتنوعها فى أى مجتمع هى التى تنشئ الفلسفة الخاصة به ، الفلسفة التى تتصدى لمحاولة حل تلك المشكلات من خلال تقديم الأجوبة الواقعية ، أو حتى المتخيلة لأسئلتها . ومن الملاحظ أن المجتمع المصرى - بوضعه الحالى ومشكلاته الراهنة ، والتى يحاول المسئولون فيه حل واحدة هنا وأخرى هنا - فى حاجة إلى فلسفة مصرية ، لها شخصيتها الخاصة بها ، ورؤيتها المتكاملة لمجموع ما يجرى فيه ، وبذلك يمكنها أن تجمع مختلف الرؤى الجزئية التى تقتصر على جانب واحد أو أكثر فى رؤية موحدة ، يسرى فيها روح عام ، وتحلق بها أجنحة متناسقة .

ومع اقتناعى الشديد بأن الدعوة إلى فلسفة مصرية معاصرة لن توجد لها بين يوم وليلة ، لكنها يكفى أن تنبه الأذهان إلى أهميتها ، بل وضرورتها ، خاصة وأن الأرض - من الناحية التاريخية ، وحساب عدد العقول المصرية المتوافرة فى الساحة الفكرية - مهيأة تماماً لمثل هذا العمل . وفى تصورى أن مثل هذه الفلسفة (المنشودة) لن يقتصر دورها فقط على إنهاض المجتمع المصرى ، وتخليصه من رواسب الجمود والتخلف ، وإحاقه بمستوى المجتمعات المتقدمة ، بل إنها من الممكن أن تمتد بدورها إلى المساهمة فى حل مشكلات العالم المعاصر ، التى تعجز كثير من فلسفات شعوبه عن التوصل لها ، وخاصة بعد أن انكفأت على ذاتها ، ولم يعد يهملها سوى تحقيق الغلبة العسكرية والاقتصادية ، على حساب المتطلبات الحيوية الأخرى للإنسان المعاصر .

إن ميزة الفلسفة المصرية الأساسية تتمثل فى أنها تستمد مقوماتها من قيم الحضارة المصرية القديمة ، ومن التعاليم الروحية فى الأديان السماوية الثلاث

التي مرت بها (اليهودية والمسيحية والإسلام) ، ومن اتصالها بمعظم ثقافات العالم القديم والحديث ، ومن إفادتها المباشرة من الموقع الجغرافى الذى يجعل منها حلقة وصل مباشرة بين ثلاث قارات (أفريقيا وآسيا وأوروبا) . وحتى بعد الدخول فى عصر العولمة ، ما زالت مصر تمثل مكان القلب من العالم كله

ان تلك الميزة الجغرافية هى التى سوف تضى على الفلسفة المصرية مجموعة من المزايا التى ربما لا تتوافر لأى فلسفة أخرى ، وهى الوسطية والاعتدال والانفتاح والتسامح ، وذلك إلى جانب النظرة المتوازنة للإنسان باعتباره جسدا وروحا يجمعهما كيان واحد ، لكن لكل منهما مطالب معينة . لن يكون الإنسان فى الفلسفة المصرية يتيما ولا ضائعا ولا مظلم المستقبل ، كما تصوره فلسفات غربية كثيرة ، قديمة ومعاصرة ، إنما هو الإنسان الذى يعرف جيدا : من أين جاء ؟ ولماذا هو موجود ؟ وكيف سيكون مصيره ، بناء على مسئوليته الحرة فى هذه الحياة ؟

وسوف تقوم الفلسفة المصرية على المزج بين جاتيين ، طالما أخطأت الفلسفات الأخرى فى عدم المزج بينهما ، وهما الطابع الإنسانى القائم على تراكم التجارب العملية التى مر بها الإنسان عبر تاريخه الطويل على الأرض ، وبين الطابع الدينى المستمد من الوحي الإلهى ، والذى يقدم له طمأنينة النفس ، ويشعره بأنه ليس وحده فى هذا الكون الشاسع الذى ما زال يلهث لاكتشاف بعض كواكبه ، فضلا عما يوجد تحته فى باطن الأرض !

هذا على المستوى العالمى ، أما على المستوى المحلى ، فإن الفلسفة المصرية هى التى سوف تلفت انتباه المفكرين المعاصرين إلى واقع الحياة المصرية المعاصرة ، وما تنوء به من مشكلات ، وما تحتوى عليه من عناصر إيجابية تستحق المتابعة والتطوير ، وذلك بدلا مما نلاحظه حاليا من انكباب على الماضى ، البعيد والقريب ، والنبش فى حفائره بغرض استخلاص حلول قديمة للمشكلات المطروحة على المجتمع المصرى فى الوقت الحاضر



، والتي تتطلب مواجهتها بعقل مفتوح ، ومنهج تجريبي ، دون ضياع الوقت والجهد فى مناقشات نظرية أو جدل عقيم !

إن الفلسفة المصرية (المنشودة) هى التى تفتتح على كل الفلسفات الأخرى، السابقة عليها والمعاصرة لها ، وأن تأخذ من كل ما تحتاج إليه ، أو ما يضيف إليها شيئاً مطلوباً . فمثلاً إذا كانت الفلسفة المثالية جميلة فى أسسها ونتائجها فإن الفلسفة البراجماتية والعملية لا تقل عنها جمالا ، بل لعلها أكثر فائدة ، لأنها تقوم على أساس أن الفكرة الصحيحة هى التى يثبت الواقع أنها كذلك . ولذلك فإن الفلسفة المصرية - وخاصة فى مرحلتها الأولى - بحاجة ماسة إلى هذا الأساس . فالمشكلات المطروحة حالياً على المجتمع المصرى تحتاج إلى حلول قابلة للتنفيذ ، وليس كلاماً نظرياً منمقاً ، لا يمكن الإمساك به خارج عقل صاحبه ، أو كلاماً جدلياً يطرحه صاحبه لكى يدخل به فى معارك لا تنتهى مع منافسيه ، كما كان يحدث أحياناً بين بعض مفكرينا خلال القرن العشرين !

ومن هنا ، فإننى أصبحت مقتنعا إلى حد بعيد بأهمية (الأفكار القابلة للتنفيذ) وقد أصدرت فيها ، وليس حولها ، أكثر من كتاب ، بعد أن نشرتها كمقالات فى الصحافة المصرية لكى تنتشر بين أكبر عدد من القراء .

إن الفلسفة المصرية المنشودة أمامها ميدان فسيح ومستقبل واعد ، لكنها بحاجة أولاً إلى مائدة مستديرة ، يجلس حولها المثقفون وأهل الفكر والرأى لمناقشتها، واستشراف آفاقها ، فعمل وعسى يتم الاقتناع بها ، وإطلاقها من قمقمها . . وأنا أحرص على هذا التعبير الأخير ، لأننى أدرك جيداً أنها إذا انطلقت من هذا القمم فسوف تحقق للمجتمع المصرى أكثر بكثير مما حققه ماردمصباح لعلاء الدين !

